لقد استنبطوا القواعد النحوية باعتبار نصوص الكلام العربى مستوى واحداً ، سواء أكانت شعراً أم نثراً — كما هو واضح تماماً فى كتب مسائل النحو منذ وجدت حتى اليوم .

ولقد ترتب على هذا الموقف من مستويات اللغة والأساس الذى راعوه فى تطبيق نظرتهم حرج شديد أجهدهم وأجهد دراسة النحو نفسها ، لأن اللغة — كما سبق — تختلف مستوياتها بين النثر والشعر والكلام العادى ، فوجدت بذلك فجوة بين الاعتبار النظرى لدى النحاة فى موقفهم من اختلاف مستويات اللغة والواقع الفعلى فى اللغة نفسها ، وهذا ما يفسر الأمور الآتية :

أولا : الانصراف عن دراسة الكلام العادى بين الناس أو الاهتمام بلهجات الكلام ، وهو — ذا جانب يكاد يكون مهملا فى دراساتنا القديمة — باستثناء ما ورد متناثراً منها — إذ اعتبر الكلام العادى فى نظر النحاة مستوى أدنى من الكلام لا يرقى إلى ما راعوه من مستوى الصحة اللغوية التى تضع أسسها قواعد النحو ، فهم لم يراعوا عرف استعمال الكلام العادى ، بل لم يراعوا العرف مطلقاً فى نثر ولا شعر .

ثانياً : واجهتهم مشكلة لغة الشعر الخاصة به ، وهم لم يفرقوا أصلا بين الشعر والنثر فى الدراسة ، فما الحل ؟

لقد وجدوا مخلصاً من ذلك فى فكرة « الضرورة » ومعناها — كما يقول القاموس — الحاجة ، والمشهور بين الدارسين أنها حاجة الشعراء إلى استخدام بنية الكلمات والجمل بطريقة خاصة ، لكن الذى أفهمه — مع ذلك — أنها كانت أيضاً حاجة النحاة فى دراستهم أمام لغة الشعر التى لا تتفق مع القواعد .